الجانب العرفاني في مفهوم الاستعارة عند الجاحظ.

The ritualistic aspect of Al-Jahiz's concept of metaphor

د. كربوش إبراهيم*
kerbouche.brahim@univ-guelma.dz

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

تاريخ الاستلام: 2021/05/24 تاريخ القبول 2021/06/17 تاريخ النشر 2021/07/05

ملخص:

يسعى هذه الجهد إلى الوقوف على مفهوم الاستعارة عند الجاحظ، بما أنه هو أول من وضع تعريفا لها في البلاغة العربية، وبغض النظر عن قيمة هذا التعريف، يكفي أنه كان واعيا تمام الوعي بهذا النوع من الصور، وقد عالجه وفق رؤية موسعة وشاملة(المجاز)، تتفق مع مذهبه وتصوره للبيان العربي. وقد كان واعيا كذلك بالمراحل الذهنية والعقلية التي تتشكل من خلالها هذه الصورة، والاعتبارات والعوامل التي تتدخل في تكوينها، والغايات التي تسعى إلى تحقيقها، بعد أن تخرج في صورتها النهائية. وقد حاولنا من خلال عملنا هذا أن نبحث عن نقاط تقارب أو تماس بين آراء الجاحظ، وآراء المعاصرين الذين عالجوا الاستعارة وفق تصور عرفاني واسع الأفق، مستفيدين من نتائج علوم مختلفة تدعى بالعلوم العرفانية (علم الأعصاب، علم النفس، الذكاء الاصطناعي، فلسفة الذهن، علوم الحاسوب، الأنسنة الإدراكية، واللسانيات العرفانية).

الكلمات المفتاحية: العرفانية، التداولية، الاستعارة، التشبيه، الجاحظ.

---

* المؤلف المراسل

Abstract:
This effort seeks to identify the concept of metaphor for al-Jahiz, since he was the first to define it in Arabic rhetoric, and regardless of the value of this definition, it is sufficient that he was fully aware of this type of image, and he treated it according to an expanded and comprehensive vision (al-Majaz), Consistent with his doctrine and his conception of the Arab statement. He was also aware of the mental and mental stages through which this image is formed, the considerations and factors that interfere in its formation, and the goals that it seeks to achieve, after it emerges in its final form/
Through our work, we have tried to search for points of convergence or contact between the views of Al-Jahiz and the opinions of contemporaries who have treated the metaphor according to a broad-minded customary conception, making use of the results of different sciences called secular sciences (neuroscience, psychology, artificial intelligence, philosophy of mind, Computer science, Perceptual Humanism, and Cognitive Linguistics).

***key words**:* Citizenship; deliberative; Metaphor; Simile; al-Jahiz.

مقدّمة:

يسعى الإنسان دوما إلى فهم ما يحيط به، والبحث عن الروابط والعلاقات المختلفة التي تربطه بغيره وبالأشياء التي من حوله، في فضاء رحب فسيح، طمعا في استيعابها والإحاطة بما فيها من معان وأفكار، فيدرك القريب والبعيد، المتشابه والمختلف، الواضح والمبهم. وعند الحديث عن العلاقة والترابط والمشابهة تفرض الاستعارة نفسها، إنها وسيط مهم بين الذهن البشري، وما يحيط به من كائنات حية وغير حية، بواسطتها يفسر الملتبس والمبهم، وتتجاوز الكثير من العراقيل التواصلية. ثم أنها وسيلة أساسية تساعد الإنسان على التعبير عن إمكاناته في النظر إلى الأشياء من زاوية غير مسبوقة تساعده على ابتداع الترابطات وملاحظة التشابه في المختلف. وبذلك هي وسيط ثقافي يمكن من تطوير المعارف وابتكار التصورات[1].

وقد حاولنا في هذا الصدد تناول موضوع الاستعارة عند علم من أعلام البلاغة العربية الذي يعد من الأوائل الذين تناولوا البلاغة، ووضعوا مؤلفات فيها، ومهدوا لمن جاء بعدهم خوض غمار البحث والتأليف فيها، وكانت له آراء قيمة في هذا المجال، اهتدى بها من جاء بعده، وأسسوا على غرارها مشاريعهم في ميدان البلاغة والبيان. ومثل هذا المشاريع الحضارية لا ينهض بها إلا رجال أفذاذ على شاكلة الجاحظ، وهو من هو في بعد الرؤية وعمق الفهم وشمولية التصور وقوة التفكير، تمثل ثقافة عصره أحسن تمثيل، لهذا قال فيه التوحيدي: ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: الطبع، والمنشأ، والعلم، والأصول، والعادة والعمر والفراغ، والعشق، والمنافسة، والبلوغ، هذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد[2].

والقصد من هذه الدراسة هو الوقوف مفهوم الاستعارة عنده، وما هي القاعدة التي تتأسس عليها(المشابهة أم غيرها)؟، وما علاقاتها بالصور البيانية الأخرى(التشبيه)؟. وما وظيفتها؟. وهل هناك آفاق يمكن للاستعارة اختراقها أو استيعابها؟. أو بالأحرى هل كانت لديه نظرة استشرافية تمس الجانب العرفاني للاستعارة، فتقترب بذلك من الدراسات المعاصرة؟. وقبل الإجابة على هذه الأسئلة، يجب تناولها من جهة اللغة أولا ثم ننتقل إلى مفهومها عنده.

الاستعارة مأخوذة من العارية: وهو ما تداولوه بينهم، والمعاورة، والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء بين اثنين. استعار الشيء واستعاره منه طلب منه أن يعيره إياه[3]. وقد دار هذا المصطلح على ألسنة الرواة وعلماء اللغة، وذكر ابن رشيق القيرواني اسم أبي عمرو بن العلاء(ت154هـ) حين علّق على بيت ذي الرمّة(الطويل):

أَقَامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى العُودُ والْتَوَى   وَسَاقَ الثُّرَيَّا فِي مَلَاءَتِهِ الفَجْرَا

فقال: ألا ترى كيف صيّر له ملاءة، وملاءة له، وإنّما استعار له هذه اللفظة[4]. وحاول الجاحظ أن يجد لها تعريفا في ضمن سياقات معينّة، على حسب ذوقه وفهمه لكنّ في

محطات قصيرة، موجزة وعابرة، إذ يكتفي بالإشارة، ثمّ سرعان ما يمرّ إلى موضوعه الأصليّ أو إلى الفكرة التي يعالجها. وإن كانت هذه الوقفات تحمل آراء قيمة، ومهمة. ففي معرض ردّه على الذين قالوا في الآية الكريمة:﴿ فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾[5]. وذلك خطأ، لأنّ السعي لا يكون إلاّ بالأرجل، فبيّن تهافت هذا الرأي وضعفه من وجوه كثيرة، فمن عادة الشعراء أن يشبهوا: كأنّ مشيته مشية حيّة، وكثير من الشعراء من جعل للحيات مشيا وكانوا لا يسمون انسيابها وانسياحها مشيا، ولكان ذلك ممّا يجوز على التشبيه والبدل*، ثم يقول: « وأن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه»[6]. فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة. وقال تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾[7] والعذاب لا يكون نزلا ولكنه أجراه مجرى كلامهم وهذا قريب جدّا من تعريف الجاحظ لها مع استعمال المصطلح(الاستعارة)، وإن كان قد سمّاها بغير هذا، واستعمل مصطلح التشبيه والمثل في سياق آخر، عرّفها قائلا :« وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وهي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[8]». والمتمعن في هذا النص وفي الأمثلة التي أوردها في سياقه يدرك أن للجاحظ موقفا واضحا من الاستعارة، وهذا الموقف يتلخص في أن الاستعارة عنده هي إعطاء خصائص الشيء وسماته لشيء آخر لا يستحقها في أصل الكلام. لسبب معين هو عجز الأسماء عن استيعاب المعاني. فالمتكلم يلجأ-لسد الفراغ الناشئ عن هذا العجز- إلى اسم مجاور بنقله من مكانه العادي ويحوله عن مجراه الطبيعي إلى ذلك الموضع الشاغر، والاستعمال المؤقت حتى يتمكن من التعبير عما يريد، وإبلاغ السامع ذلك المعنى الجديد. فالاستعارة إذن نقل للمعاني. وهنا لابد من التذكير بأن الجاحظ يقصد عادة بأسماء المعاني صورها ومدلولاتها. وهكذا تكون الاستعارة عنده في الحقيقة نقلا للمعاني أي المدلولات، لا الألفاظ كما قد يتوهم، والكل لمبرر واحد هو قرابة هذه الأسماء، وإمكانية نيابة بعضها عن بعض[9]. وقال كذلك:« ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسياحها مشيا وسعيا، لكان ذلك ممّا يجوز على التشبيه والبدل[10]».

وما نخلص إليه هو أنّ الجاحظ كان يدرك العلاقة بين التشبيه والاستعارة، وربّما اعتبرها هي نفسها تشبيه أو هي أحد صوره، فهي لا تخرج عن حدود التشبيه تقريبا. وقد علّق توفيق الحمدي في هذا السياق:« فإنّ لم يحدد الجاحظ تحديدا صارما قاطعا للاستعارة، فاعتبارها ظاهرة بلاغية، فإنّه رسم الخطوط الكبرى للفعل الاستعاري، وهي خطوط متّسعة تماشيا واتساع دائرة البيان كما رسمها في تأليفه لتحوي كلّ ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير...»[11]. والاستعارة عند الجاحظ من المجاز، فقد استنتج محمد عبد الغني المصري أن الجاحظ يذهب مذهب أرسطو للتفريق بين التشبيه والاستعارة، فإذا ذكرت الأداة فهذا تشبيه، وعدم وجود الأداة في الاستعارة يعني المجاز. وقال: وعدم وجود الأداة في الاستعارة يعني المجاز، وقد التقى(أرسطو) معه الجاحظ وتسربت من بعد لعلماء البلاغة العرب، ولهذا نجدهم يعدون التشبيه البليغ الذي حذفت منه الأداة ووجه الشبه من أنواع الاستعارة التصريحية[12].

أما بالنسبة للعلاقة بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي لا تقوم على علاقة المشابهة فقط، وإنما أطلقها على النصوص المجازية عامة، إذ مجرد تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه يعده من قبيل الاستعارة[13]. ويبدو أن الجاحظ كان يميز بشكل واضح كذلك المواضع التي استعمل فيه معنى الاستعارة كالمثل والتشبيه والاشتقاق... والنص التالي يوضح لنا أكثر هذا الاتجاه. ويؤكد موقف الجاحظ من الاستعارة وقد جاء في تعليقه على أبيات للأشهب بن رملية يقول فيها:

هم ساعد الدهر الذي يتقى به   وما خير كف لا تنوء بساعد

قوله: هم ساعد الدهر إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع[14].

فالجاحظ يرفض أن يسمى ساعد الدهر بديعا كما يفعل الرواة ليفرغه من كل مضمون ديني، ويسميه هنا مثلا ليحمل النص حملا مجازيا يصرفه عن كل اقتراب من الحقيقة، لأن ذلك قد يؤدي إلى نسبة القدرة والقوة إلى الدهر دون الله، ولذلك يعقب عليه ببيت للراعي يقول فيه:

هم كاهل الدهر الذي يتقى به ومنكبه إن كان للدهر منكب

والفرق بين بيت الأشهب، وبيت الراعي أن هذا الأخير صرح بأنه لا يعتقد أن يكون للدهر منكب. وهكذا يرفض الجاحظ الارتباط بمفاهيم الآخرين والتقيد بها. وبهذا يكون الحكم عنده على الكلمة بأنها استعارة، أو مثل، أو بديع يختلف باختلاف الظروف والأشخاص. كما يكون بديعا عند المتكلم قد يكون مثلا عند المخاطب، وما كان مجازا اليوم قد يصير حقيقة غدا. ويكون وضع الاستعارة وغيرها من وجوه البلاغة الأخرى وضعا غير مستقر، لأنه موكل بنية المتكلم وقبول المخاطب[15].

ففي رأي أحد الدارسين(محمد الصغير بناني) أن ما يجب تأكيده أن الجاحظ لم يكن يخلط بين هذه المفاهيم خلط الجاهل بها. ولا يمكن رميه بالاضطراب والخلل وهو الحريص على تدقيق المعاني وضبط لطائفها[16]. والاستعارة عند الجاحظ هي عملية خيالية محضة تتم في مستوى المتكلم والسامع. ويشترط في تحقيقها قبولهما لها معا. وفي هذا يقول الجاحظ: لان مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد[17]. فلأن كثير ما يحدث أن يحمل المتكلم كلامه على المجاز، ويذهب السامع فيه إلى الحقيقة أو العكس، فيقع الخلاف بينهما ويختل الكلام. وقضية الاستعارة عند الجاحظ مرتبطة بمشكلة الحقيقة والمجاز، والحقيقة عنده حقيقتان: حقيقة ظاهرة، وحقيقة باطنة، أو حقيقة دنيوية وحقيقة أخروية، والحقيقة الدنيوية بالنسبة لحقيقة الآخرة هي بمنزلة المجاز بالنسبة للحقيقة أي أنها لا تمثلها تمثيلا أمينا، ولا تصورها تصويرا صادقا. وبهذا يصبح عنده نوعان من الحقيقة ونوعان من المجاز وقد صرح بهذا في كتاب الحيوان فقال: وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول. والعقل هو الحجة، وقد علمنا أن خزنة النار من الملائكة، ليسوا بدون خزنة الجنة، وأن ملك الموت ليس بدون ملك السحاب، وإن أتانا بالغيث وجلب الحياء، وجبريل الذي ينزل بالعذاب، ليس بدون ميكائيل الذي ينزل بالرحمة، وإنما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقات ذلك ومواضعه[18]. وهكذا

يصبح اسم جبريل الذي كنا نعتقده حقيقة مجازا في نظر الجاحظ، وتصبح قضية الاستعارة أدخل في قانون النسبية الذي ينص على أن المدركات تختلف حقائقها باختلاف الزاوية التي ينظر منها إليها[19]. والجاحظ يطرح قضية المعرفة في أبعد صورها المأساوية بالنسبة للإنسان، ويصل إلى ما وصل إليه بعض النقاد المتأخرين من أن الاستعارة مرتبطة ارتباطا وثيقا بعقلية العصر، وبتصورات الجيل. فهي من نتاج الحضارة والتطور الفكري. والجانب السلبي فيها هو أنها توهم بالحقيقة وتحث على التمادي في الضلال إذا كانت مبنية على الخطأ[20].

1 . الاستعارة عند القدماء:

عرفها ابن قتيبة: العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورا لها، أو مشاكلا[21]. ونلاحظ هنا أنه بيّن العلاقة بين الكلمتين تقوم على: السببية، المجاورة، والمشاكلة. وواضح من كلامه أن الاستعارة يعدها من المجاز.

وحدّدها ابن الأثير وجعلها من المجاز، وأنّها تشبيه حذف أحد طرفيه: والتشبيه المحذوف: أن يذكر المشبه دون المشبّه به، ويسمّى استعارة[22]، ثمّ يحاول أن يفرّق بينها وبين التشبيه. أما السكّاكي فقد بلغ بتعريفة لها دقّة كبيرة: وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبّه به[23].

أما بالنسبة :الجرجاني: فالاستعارة في هذه القضية وذاك أن موضوعها على أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ. ولكنه يعرفه من معنى اللفظ[24]. وقال أليست الاستعارة نقل الاسم، ولكن ادعاء معنى الاسم[25]. وليست نقل كما أشار الكثير من البلاغيين والنقاد مثل: القاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري...

وقد تنبه الآمدي إلى أن الاستعارة لا تقوم على المشابهة فحسب، بل تقوم على أشياء أخرى، حيث يقول: وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو

يشبهه في بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه، وهذا الكلام قريب من كلام ابن قتيبة الذي ألمحنا إليه سابقا[26].

لكن المؤكد أن أغلب علماء البلاغة يحرصون كل الحرص في مجال الاستعارة وفي المجاز بصفة عامة على نسج العرب الأوائل وطريقتهم، كالمقاربة في التشبيه، ومناسبة المستعار للمستعار له وامتزاج اللفظ بالمعنى فيها وقد أشار الجاحظ إلى ذلك صراحة: وإنما عُني العتّابي إفهامَك العرب حاجتَك على مجاري كلام العرب الفصحاء[27].

ويمكن حصر اجتهادات القدماء في تعاملهم مع الاستعارة في العناصر التالية:

أ- أن الاستعارة مسألة لغوية.

ب- الاستعارة عملية نقلية، وإن الجرجاني يقول بالادعاء.

ج- يحضر طرف من طرفي الاستعارة، ويغيب الطرف الثاني.

د- مسوغ الاستعارة هو المشابهة، ونسجل تمييز الآمدي الذي جعل المسوغ مناسبة أشمل من المشابهة.

هـ- وظيفة الاستعارة إما اتساعية أو تأكيدية، أو تجميلية، أو توضيحية، أي أنها صيغة زائدة، يتم الانتقال إليها حسب رغبة مستعملها[28].

2 . الاستعارة عند المحدثين:

توسّع المحدثون في تناول الاستعارة، وذهبوا بها مذاهب شتى، سواء في المفهوم أو في الوظيفة. نظرا لما عرفه العصر من تطور كبير في مجالات مختلفة، وقد استفادت الكثير من العلوم —الإنسانية وغيرها- من بعضها البعض، ومن التطور التكنولوجي الهائل الحاصل الآن، الشيء الذي أثر بشكل واضح في المناهج والتصورات والأهداف، وظهرت في خضم هذا ما يسمى بالعلوم العرفانية التي تضم: علم الأعصاب، وعلم النفس، والذكاء الاصطناعيين، وفلسفة الذهن، وعلوم الحاسوب، والأنسنة الإدراكية، واللسانيات العرفانية. والاستعارة من ثمار التفكير اللساني الحديث، الذي لم تبق فيه الاستعارة على

أهميتها عنصر تجميل وتزويق يطرب قارئي الأدب، وإنما غدت موضوع الحياة كلها من وجوهها التداولية اليومية إلى أبعادها التأثيرية النفسية، وبين الإفادة والإمتاع، وبين التذوق والتدبر[29]. فغدت الاستعارة بالنسبة لعدد كبير من الناس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي. إنها تتعلق، في نظرهم، بالاستعمالات اللغوية غير العادية، وليس بالاستعمالات العادية، وعلاوة على ذلك، يعتقد الناس أن الاستعارة خاصية لغوية تنصب على الألفاظ، وليس على التفكير والأنشطة. ولهذا يظن أغلب الناس أنه بالإمكان الاستغناء على الاستعارة دون جهد كبير، وعلى العكس من ذلك، فقد انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، إنها ليست مقتصرة على اللغة بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا، إن النسق التصوري العادي الذي يسير تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس. إن التصورات التي تتحكم في تفكيرنا ليست ذات طبيعة ثقافية صرف، فهي تتحكم أيضا في سلوكاتنا اليومية البسيطة بكل تفاصيلها، فتصوراتنا تبنين ما ندركه، وتبنين الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، كما تبنين كيفية ارتباطنا بالناس، وبهذا يلعب نسقنا التصوري دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية، وإذا كان صحيحا أن نسقنا التصوري، في جزء كبير منه، ذو طبيعة استعارية فإن كيفية تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا في كل يوم...، ترتبط بشكل وثيق بالاستعارة[30]. ويضيف لايكوف: وعلاوة على هذا، فالأمر يرتبط بطريقتنا العادية في الجدال، وفي الحديث عن الجدال. فطريقتنا العادية جدا في الحديث عن الهجوم على موقف ما، هي استعمال ألفاظ الهجوم على الموقف(الموقع). ويقتضي الطريقة التي تواضعنا عليها في الحديث عن الجدالات، استعارة لا نكاد نشعر بها. فالاستعارة ليست فقط في الألفاظ التي نستعملها، إنها حاضرة كذلك في تصور الجدال نفسه. إن لغة الجدال ليست شعرية أو تخييلية، أو بلاغية، إنها حرفية، فنحن نتحدث بهذا الشكل عن الجدالات لأننا نتصورها كذلك، ونتصرف باعتبار الطريقة التي نتصور بها الأشياء. أهم افتراض قدمناه لحد الآن إذن، هو أن الاستعارة لا ترتبط باللغة أو الألفاظ، بل على عكس ذلك،

فصيرورات الفكر البشري هي التي تعد استعارية في جزء كبير منها..فالاستعارات في اللغة ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النسق التصوري لكل منا[31]. فالنشاط اللغوي مهما تكن خصوصيته، محكوم بالآليات العرفانية العامة الموجهة لسائر الأنشطة الإنسانية الأخرى الذهنية والسلوكية، ففصل اللغة عن أنماط المعرفة الأخرى اعتباطي، وليست اللغة بهذا المعنى كيانا مكتفيا بذاته، وما اللسانيات إلا جزء من مشروع معرفي أوسع، أركانه الأخرى علم النفس، والذكاء الاصطناعي، وعلم وظائف الأعصاب، والإعلامية، وغايته ضبط آليات اشتغال الذهن والدماغ وصولا إلى محاكاتها آليا[32].

وبعد هذا العرض حري بنا أن نقول: أين نجد الجانب العرفاني عند الجاحظ في الاستعارة؟. في الحقيقة نحن لا نسعى لتأكيد هذه القضية بطريقة مباشرة، لأن آراء الجاحظ مبثوثة في كتبه، وتحتاج لجهد متواصل لرصدها، ولم شعثها، ومن ثم تكوين رؤية واضحة تعبر آرائه ومواقفه. ولهذا عملنا هو عبارة عن محاولة في هذا الصدد. وأول شيء رصدناه هو عرضه لنظرية البيان بمفهوم واسع، وهو يقوم أساسا على الفهم والإفهام حيث قال: فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[33]. فلم تعد اللغة هي الوسيلة الوحيدة في التواصل، فهناك وسائل أخرى، تؤدي الوظيفة نفسها، حيث قال: وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تمسى نصبة[34]. كما أن الجاحظ جعل فضاء الاستعارة واسعا ولم يجل له قيودا صارمة تقودنا إلى اتجاه محدد لا محيد عنه. والاستعارة عنده عملية تخييلية تدخل في باب التشبيه والمجاز، ففي التشبيه تقوم العلاقة على المشابهة، وفي المجاز تقوم على علاقات أخرى غير المشابهة. وهذا يتفق مع أصحاب الاتجاه العرفاني. وقد تحدث الجاحظ الاستعارة وعدها نقلا، وهذا إشارة منه إلى أننا ننتقل من مجال إلى آخر، أي هي عملية جمع بين مجالين مختلفين أو متباعدين، ولا بد أن تجمع بينهما(المستعار والمستعار له) أمور مشتركة يتم التركيز عليها(وجه الشبه). وأشار كذلك إلى ثقافة المتحدث والسامع، وامتلاكهما القدرة

على فهم بعضهما البعض(القصدية)، وحتى يتم التواصل بينهما. وعبر لايكوف وجونسون عن هذا بالمزج بين فضاءين ذهنيين، وينشأ عن ذلك مزيج هو حصيلة التداخل بين الفضاءين، ورأيا أنه لا بد من فهم مجال المصدر(المستعار أو المشبه به) لفهم مجال الهدف(المستعار له) لا شك أن الفهم يتطلب من المتقبل لتفكيك الاستعارة وفهمها. كما لاحظ لايكوف أن قوة الاستعارة مستمدة من مفهوم الإسقاط، ولكن هل يكون الإسقاط كليا؟ في هذا الإطار تقحم هذه النظرية مفهوما أساسيا هو التبئير أو التنشيط، فقد رأى أصحابها أن الاستعارة تبئر أو تنشط بعض السمات الدلالية دون أخرى تكون هامة في خدمة الاستعارة، وتهمل عناصر ثانوية لا تخدم مقصد الاستعارة وفي استعارة الأسد للإنسان نركز على صفة الشجاعة دون غيرها[35]. وتحدث كذلك عن عملية الاختيار، وهي نشاط ذهني كما نعلم، فالمعاني الشريفة تحتاج إلى ألفاظ شريفة تناسبها. كما أن الجاحظ أشار أن المجاز موجود في كلام العرب، والقرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يخرج من بطونها شراب﴾ فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا، أو بالماء نبيذا. فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجيء منه الشراب. وقد جاء في كلام العرب أن يقوقوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم. وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط. ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها، فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها. ومن حمل اللغة هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيران وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم[36].

إن الاستعارة بهذا معنى، أي في علاقتها بالتشبيه والمجاز مرتبطة في إطارها التداولي المقامي بالحقيقة والمجاز، إذ لابد للمتكلم والسامع أن تتوفر لديهما ثقافة معينة، حتى يتمكنا من تمييز الكلام المجازي من الكلام الحقيقي، فلا يقع الخلاف بينهما، ويختل الكلام مثلما حدث بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص في هذا الحوار الذي يذكره الجاحظ: لما أقدم عمر بن الخطاب عمرو بن العاص عليه من مصر قال له عمر: لقد

سرت سير عاشق. قال عمرو: إني والله ما تأبطتني الإماء، ولا حملتني البغايا في غبرات المآلي. قال له عمر: والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتك عنه، وإن الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحل، والبيضة منسوبة إلى طرقها[37]. وهذا يعود بالأساس إلى عدم فهم المتلقي قصد المتكلم. وعبر عن هذا الموقف حين نقل كلام الإمام إبراهيم بن محمد الذي قال: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. قال أبو عثمان: أما أنا فأستحسن هذا القول جدا[38]. ومن هنا نستنتج أن الجاحظ منح الاستعارة بعدها التداولي، ويقول الجاحظ في مقام آخر: وللعرب إقدام على الكلام، ثقة بفهم أصحابهم عنهم[39]. كما تحدث عن وظيفة الاستعارة باعتبارها وسيلة لإثراء اللغة والتوسع فيها، وهذا هو في الحقيقة دور المجاز بصفة عامة، كما أنها تبحث عن علاقات جديدة، تدخل في باب الإبداع والخلق، وهي بذلك تحقق الانسجام بين العناصر المتباعدة فترفع التناقض الظاهر بينها، وتتحقق ما يسميه لايكوف وجونسون بإبداع المشابهة، أي قدرة الاستعارات على خلق معان، ومفاهيم وعلاقات جديدة داخل اللغة، وبين اللغة والعالم(بما هي وظيفة معرفية تخلق حقائق جديدة، وتوسع المجال الدلالي لاشتغال اللغة والفكر ونموهما) وتسمح بتعدد التأويل انطلاقا من تعدد التشاكلات البلاغية والدلالية التي يتضمنها النص (وظيفة موسوعية تحرك السجل الثقافي والموسوعي للقارئ، وتتطلب منه عملا تعاونيا)[40].

وقد انتبه الجاحظ كذلك إلى ما يسمى بالاستعارات الميتة، عبارات من طراز أرجل الكرسي، أو لسان الباب. الاستعارات الحية هي استعارات الابتكار التي تكون فيها الاستجابة للتنافر في الجملة توسيعا جديدا للمعنى، وإن صح القول بالتأكيد إن الاستعارات المبتدعة تتحول بالتكرار إلى استعارات ميتة[41]. حيث أشار الجاحظ إلى أن المتأمل يرى أن الناس تستعمل في حياتهم اليومية الكثير من المجازات، وكثرة الاستعمال أفقدتها قيمتها الجمالية والتأثيرية في النفوس، وأصبحت لا تختلف عن التعبير اليومي العادي، أي تخرج من المجاز. وقد ساق الجاحظ بعض الأمثلة، منها مسمع الحسن

البصري رجلا يقول: طلع سهيل وبرد الليل. فكره ذلك وقال: إن سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط. ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كره الحسن كما ترى. وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا الكلام مجازه قائم...وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل. وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل. وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك[42]. وهذا ما سماه ستيفن أولمان بقانون التضاؤل التدريجي، ذلك القانون الذي سوف نراه يقوم بدور كبير في تغيير المعنى في أحيان كثيرة. فالمجازات مثلا والمصطلحات البيئية الخاصة، وأساليب المبالغة بل وأساليب حسن التعبير، كل هذه لا بد أن تفقد ألوانها المعنوية الخاصة، وأن تحرم من قوتها التعبيرية الإيحائية بكثرة التكرار والترداد[43]. وإذا كان لايكوف وجونسون يعتبران الاستعارة نتاجا ثقافيا شديد الصلة بتجارب البشر اليومية، وهذا شيء ليس بعيدا عن تصور الجاحظ، فالمنهج المعرفي يستقي خصوصياته الإبداعية من الطبيعة الحياتية للأديب أو الشاعر، فالكيفيات الإبداعية هي كيفيات حياتية لا تفرق هذه عن تلك، تتناجزان معا لأن الثقافة العربية هي ثقافة بيان، وإن كان يميز بين درجة التعبير أو بالأحرى مستواه الفني، لأن العامة لا تجاري الكلام الفصيح، لأنهم لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال...والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا، وتدع ما هو أظهر وأكثر[44].

وخلاصة القول أن ما قدمناه ما هو إلا محاولة، أو نوع من القراءة تسعى إلى عرض رؤية الجاحظ تجاه باب من أبواب البلاغة، والتي لاقت اهتماما كبيرا في الدراسات المعاصرة، واكتسبت مفاهيم موسعة، ووظائف مختلفة، لاستفادتها من نتائج العلوم العرفانية التي زادتها قوة ونشاطا وتوسعا. ولمسنا من خلال العرض أن الجاحظ كان يمتلك آراء ذات قيمة وشأن، ويمتلك بعد نظر فيما يطرحه، ويعالجه من قضايا بلاغية وغيرها، لأنه يمتلك كذلك فكرا حرا، وعرف كيف يستفاد من مذهبه المعتزلي الذي يرى أن العقل

هو الحجة، ومن ثقافة عصره التي أكسبته ثراء في الفكر، ورؤية واضحة في كل ما يعرضه من مواقف.

---

[1]- عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية، ط1، دار توبقال للنشر، 2001، ص 57.

[2]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح: غريد الشيخ محمد وآخر، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 2004، ص 44.

[3]. ابن منظور، لسان العرب، مادة عور، دار صادر، بيروت، دت، مادة عور، ص: 471/9.

[4]- ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح: النبوي عبد الواحد شعلان، ص 428/1.

[5]- طه: 20.

[*]- نلاحظ كيف أن الجاحظ استعمل مصطلحين هما : التشبيه والبدل مكان مصطلح الاستعارة.

[6]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ص 273/4.

[7]-الواقعة: 56.

[8]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،، ص 153/1.

[9]- بناني محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 291.

[10]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ص 273/4.

[11]- توفيق الحمدي، مواقف البلاغيين والنقاد العرب من الاستعارة، دار محمد علي للنشر- تونس، ط:1، 2007، ص 117.

[12]- محمد عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في البلاغة، ط1، دار العدوي، عمان –الأردن، 1983، ص 46.

[13]- صالح السامرائي، المجاز في البلاغة العربية، مهدي ط1، دار ابن كثير، دمشق-سوريا، 2015، ص 63.

[14]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص 55/4.

[15]- بناني محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص 296.

[16]- المرجع نفسه، ص 294.

[17]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص 11/1.

[18]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ص 207/1.

[19]- بناني محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص 292.

[20]- المرجع نفسه، ص 293.

[21]- ابن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تح: سعد بن نجدت عمر، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق- سوريا، 2011، ص 147.

[22]- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر ط:2،(دت) ، ص 71/2.

[23]- السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1987، ص 369.

[24]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد التنجي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ص316.

[25]- المرجع نفسه، ص 321.

[26]- أبو القاسم الحسين بن بشر بن يحيى الآمدي، الموازنة، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار المسيرة بيروت، 1987، ص234.

[27]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص 162/1.

[28]- عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية، ص 61.

[29]- صبيحة جمعة، الاستعارة من المقاربة الجمالية التقليدية إلى المقاربة العرفنية الحديثة، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج:4، ع:2، 2020، ص 33.

[30]- جورج لايكوف وآخر، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص 21.

[31]- المرجع نفسه، ص 23.

[32]- مجموعة من الباحثين، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس، 2012، ص 388.

[33]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص: 76/1.

[34]- المصدر نفسه، ص 76/1.

[35]- المنجي الفلقاط، الاستعارة في المنظورين التداولي والعرفاني، حوليات الجامعة التونسية، ع: 57، 2012، ص317.

[36]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ص: 425/5، 426.

[37]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص 283/2.

[38]- المصدر نفسه، ص 87/1.

[39]- الجاحظ، الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت: عبد السلام هارون، ص 32/5.

[40]- سعيد الحنصالي، الاستعارات والشعر العربي، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، 2005، ص 26.

[41]- بول ريكور، نظرية التأويل وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2206، ص 93.

[42]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ص 341/1.

[43]- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، القاهرة-مصر، دت، ص 96.

[44]- الجاحظ، البيان والتبيين، عمرو بحر، تح: عبد السلام هارون، ص 20/1.